

أحاديث رمضان ١٤١٦ - نظرات في آيات الله - سورة الليل - الدرس (١١ - ٥٠) : خصائص النفس البشرية ، قانون العز والذل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٦-٠١-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

قانون العز و الذل :

أيها الأخوة؛ للنفس البشرية خصائص، من هذه الخصائص أن موضوع عزتها وذلها موضوع مهم جداً في حياتنا، لو أن إنساناً جائعاً جوعاً شديداً ودعاه إنسان إلى طعام وأهانته، هل يأكل؟ لا يأكل، فلعل سلم الأولويات في حياة الإنسان أن يكون كريماً، الإنسان أحياناً لا يملك أجرة سيارة، يذهب إلى بيته ماشياً لكن رأسه مرفوع، أما كلمة واحدة من إنسان ظالم أو قوي فلا ينساها لسنة، يمكن لا يملك مبلغاً بسيطاً يركب في مركبة عامة صعد ماشياً إلى بيته وكرامته محفوظة، قد يأكل أخشن الطعام، قد يلبس أخشن الثياب، قد يتلوى جوعاً، يذوق الأمرين ومع ذلك كرامته موفورة، وقد يتقلب بالنعيم، فإذا أهنته تركت هذه الإهانة رضاً نفسياً لا ينسأه لسنوات طويلة.

نحن عندنا بالقرآن قانون التيسير والتعسير :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ

بِالْحُسْنَى ﴿

[سورة الليل : ٥-٩]

يا ترى في القرآن الكريم قانون العز والذل؟

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴿

[سورة يونس : ٢٦]

إن أحسنت لا يستطيع أحد أن يذلك، صدقت، أديت واجبك تماماً، أديت ما عليك من حقوق، كنت أميناً على ما استأمنت عليه، كنت وفيّاً، أخلصت في عملك، لم تخن أبداً، إحسان مطلق، في حرفتك، في علاقاتك، الزوج مثلاً يدخل إلى البيت ملكاً فإذا اكتشفت زوجته أنه يخونها تسبه وقد تهينه، متى يهان الإنسان؟ متى يذل؟ إذا انحرف، القانون واضح جداً،

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى ﴿

في الدنيا،

﴿ وَزِيَادَةٌ ﴿

الحسنى الجنة وزيادة النظر إلى وجه الله الكريم،

﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴿

غش ثم اكتشف أنه غش، أكل مالا حراماً احتيالياً ثم فضح، انحرف في سلوكه ثم انكشف، بعض الصحف اليومية تنشر كل أسبوعين قصة عن إنسان زلت قدمه فجر لأسرته الويل والدمار، شخص ذهب مع والدته لبلد غربي لإجراء عملية جراحية، زلت قدمه أعطى أمه دماً وقد أصيب هو بهذا المرض.

الآن الصحف تذكر يومياً أن هذا المرض له ستة أنواع، فلو اختبرنا الدم على نوع قد يكون مصاباً بنوع ثان، وعندنا الآن حقيقة مخيفة جداً هي أن هذا المرض له طور اسمه الصمت المخبري، ستة أشهر لا تظهر أعراضه بالفحص المخبري، وقد يعطيك دماً، تفحص الدم الجواب سلبي، يعطي الدم لغيره فيصاب غيره بهذا المرض، معنى هذا أن هذا الشيء خطير جداً.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾

[سورة يونس : ٢٧]

هذا قانون العز والذل، أتحب أن تكون عزيزاً؟ استقم، أخلص، اصدق، كن أميناً، شخص قال لأبي حنيفة: يا أبا حنيفة لو تغشيتنا؟ فقال : ولم أتغشاكم وليس عندكم شيء أخافكم عليه؟ وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء.

الإنسان إذا زهد في الدنيا يتحرك، يصبح عزيز النفس، ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس، وازهد في الدنيا يحبك الله، ارجب بما عند الله يحبك الله، ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس. أيها الأخوة الكرام؛ شعور الإنسان أنه بريء ونظيف لا يقدر بثمن، أحياناً الإنسان ينحرف فيدفع ثمن انحرافه باهظاً، يلقي شر عمله، المستقيم يدخل على قلبه من السعادة والطمأنينة، يقول لك: الحمد لله لم تنزل قدمي، فذلك قانون التيسير والتعسير، قانون العز والذل.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[سورة يونس : ٢٦-٢٧]

علامات آخر الزمان :

النبى عليه الصلاة والسلام فيما ورد عنه من علامات آخر الزمان، يقول عليه الصلاة والسلام- طبعاً النبى عليه الصلاة والسلام لم يعرف هذا من ذاته، لا يعلم الغيب إلا الله ولكن الله أعلمه:-
 ((سيجيء في آخر الزمان أقوام تكون وجوههم وجوه الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين، أمثال الذئاب الضواري، ليس في قلوبهم شيء من الرحمة، إن تابعتهم خانوك، وإن غبت عنهم اغتابوك، وإن حدثوك كذبوك، وإن اتمنتهم خانوك، صبيهم غامر، وشابهم شاطر، شيخهم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، الاعتزاز بهم ذل، وطلب ما في أيديهم فقر، الحليم فيهم غاو،

والآمر فيهم بالمعروف متهم، المؤمن فيهم مستضعف، والفاسق فيهم مشرف، السنة فيهم بدعة،
والبدعة فيهم سنة))

[الطبراني عن ابن عباس]

هذه النماذج نجدها في كل مكان، في العصور المتأخرة لا يوجد صدق، لا يوجد أمانة، المال يؤخذ
غصباً، يؤخذ بالحرام.

تجد الأشخاص يصلون، لذلك لك أن تقول: حينما هان أمر الله على الناس هانوا على الله، الأمين
يخون، والخائن يصدق، يؤمر بالمنكر، ينهى عن المعروف، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: لسنا أحبائك؟ قال: لا، أنتم أصحابي، أحبابي أناس يأتون في آخر

الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر، أجرهم كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم؟

قال: بل منكم، لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

[ورد في الأثر]

((بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء وهم الذين يصلحون ما أفسد الناس))

[الترمذي عن عمرو بن عوف]

طبعاً ذكرت هذا الحديث الإنسان لو كان مكتفياً لا يطمع بما عند الناس، يبتعد عن هؤلاء، هناك
أناس منحرفون يكسبون المال الحرام، هؤلاء ابتعد عنهم، وارفح رأسك، ذكرت هذه النماذج حتى لا
يسعى الإنسان لينال الدنيا عن طريق أهل الدنيا، دع الدنيا لأهلها والله هو الغني، هو الذي يرزقك،
وهو الذي يرحمك.

الابتعاد عن المواقف التي تدلّ النفس :

لذلك ورد في الحديث :

((لا ينبغي للمؤمن أن يُدَلّ نفسه))

[الترمذي عن حذيفة بن اليمان]

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((إياك وما يعتذر منه))

[الطبراني عن عبد الله بن عمر]

أي موقف يضطرك إلى أن تعتذر، من أجل أن تحقق عزة نفسك، الدعاء في صلاة الفجر:
سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، هؤلاء الذين عادوا هذا الدين الذين عاصروا
النبي عليه الصلاة والسلام أين هم الآن؟ في مزابل التاريخ، الذين نصره أين هم الآن؟ في أعلى
عليين.

إذا الإنسان ألقى بنفسه في التهلكة ليس حكيماً، اندفع اندفاعاً أعمى فتحمل ما لا يطيق، لعله يذل:

((لا ينبغي للمؤمن أن يُدَلّ نفسه))

[الترمذي عن حذيفة بن اليمان]

حديث آخر له علاقة بهذا الموضوع:

((طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ مِنْ غَيْرِ مَنْقَصَةٍ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ - تَذَلُّ، الْعِبَادَةُ لَا تَذَلُّ - وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ - مَا لِحَالِ جَمْعِهِ بِكَدِّ يَمِينِهِ وَعَرَقِ جَبِينِهِ، أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ - أَصْحَابَهُ مُؤْمِنُونَ، مَجَالِسُهُ مَجَالِسُ عِلْمٍ، كُلُّ عِلَاقَاتِهِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ - وَرَحِمَ أَهْلَ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ، وَطَابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ عِلَانِيَتُهُ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ، وَأَنْفَقَ الْفُضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفُضْلَ مِنْ قَوْلِهِ))

[الطبراني بسند صحيح حسن]

كلامه قليل إنفاقه كثير، هناك إنسان كلامه كثير وعمله قليل.

((طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ مِنْ غَيْرِ مَنْقَصَةٍ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ، وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ، طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ، وَطَابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ عِلَانِيَتُهُ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ، وَأَنْفَقَ الْفُضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفُضْلَ مِنْ قَوْلِهِ))

نحن يهمننا أن قانون العز الإحسان، والإحسان كلمة واسعة، إذا إنسان أتقن عمله، طيب وصف وصفة، سأل المريض عندك حساسية؟ قال له: لا، فأعطاه دواء، لو لم يسأله وعنده حساسية، الدواء يصيبه بصدمة، يقول له طبيب المستشفى: من وصف لك الوصفة؟ فيقول له: فلان، يتكلمون عنه، يواجهونه بخطئه فيتهرّب، يخجل، من أين جاء الضعف؟ من خطئه، الخطأ يصغر الإنسان، لذلك قانون العز أن تحسن، والذي يسيء لا بد من أن يحجم، لا بد من أن يوضع في زاوية ضيقة، لا بد من أن يتهم، لا بد من أن يشار إليه بأصبع الاتهام هذا المسيء، المحسن يرفع نفسه دائماً ولا يستطيع أحد أن يذله، خذ مثلاً بالتعليم؛ مدرس مهما كان المدير قاسياً، مهما كان شديداً، مهما كان غير منصف، أنت إذا أتيت في الوقت المناسب، وألقيت الدرس المناسب، وقدمت الأوراق المصححة بالوقت المناسب، لا يستطيع أسوأ مدير أن يقول لك كلمة، مهما كان الإنسان فوقه أشخاص أقوىاء إذا استقام على أمر الله، وكان مخلصاً بعمله تجد له مكانة، مكانته من إحسانه، حتى الإنسان الشرس يتأدب معه، المنحرف المجحف لأنه مستقيم يحترمه.

أيها الأخوة الكرام؛ الإنسان إن أساء جلب لدينه سمعة سيئة، وإن أحسن جلب لدينه سمعة طيبة، أنت لأنك مسلم أو لأن لك خلفية إسلامية كما يقولون: لك انتماء إسلامي، معروف أنك صالح، ولك مجلس علم، أنت محاسب حساباً دقيقاً جداً، الأضواء كلها مسلطة عليك، الخطأ الصغير يكبر، فعليك أن تكون دقيقاً جداً حتى ترفع رأسك، ولا تتحمل تهماً أنت بريء منها.

والحمد لله رب العالمين